

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله.
وبعد.. فهذه سورة «الإسراء»، والتي تسمى أيضًا.. بسورة «سبحان» وتسمى ثالثًا.. بسورة «بني إسرائيل».

هي سورة مكية، تبدأ بذكر هذه الحادثة العجيبة، والمعجزة البديعة للنبي ﷺ وهي «حادثة الإسراء». يقول الله تعالى:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُبَيِّنَ لِرَبِّهِمْ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)

أي: ﴿سُبْحَنَ﴾ أنزه وأقدس وأعظم ﴿الَّذِي أَسْرَى﴾ وهو الله سبحانه ﴿بِعَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ في جزء يسير من الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بمكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس البعيد عن مكة ﴿الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ دينا ودنيا، في الخيرات، وكثرة العباد والدعاة إلى الله ﴿حَوْلَهُ﴾ من كل جوانبه.

وذلك: ﴿لِنُرِيَهُمْ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿مِّنْ ءَايَاتِنَا﴾ الكبرى، الدالة على: الوحدانية، والقدرة، وصدق الوحي الذي ينزل عليه.

وبالطبع: هذا حدث عظيم، وسيختلف الناس حوله، وسيقولون ويقولون.

والله عز وجل سميع لكل ما يقولونه، عالم به.

حيث ﴿إِنَّهُ﴾ عز وجل ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بجميع مخلوقاته.

ولمّا ذكر المولى تكريم محمد ﷺ بالإسراء، ذكر عقيقه تكريم موسى ﷺ بالتوراة.. وفي ذلك تدليل على وحدة الرسالة، ووحدة الوحي. حيث قال عز وجل:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيلًا ۝﴾

يعني: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿هُدًى﴾ هاديًا ومرشدًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وأوحينا لموسى فيه أن يقول لبني إسرائيل: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي﴾ من أحد غيري ﴿وَكَيلًا﴾ تتكلمون عليه في أموركم، وتعتمدون عليه في شؤونكم، وتعبدونه.

حيث إن الله وحده سبحانه، هو الولي، والوكيل، والنصير، والمعبود.

ثم قال دعوة لهم إلى الطاعة:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾

أي: يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة، يا ذرية من نجيناهم تشبهوا بأبائكم، الذين نجوا في الإيمان والطاعة، وتشبهوا كذلك بنوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا﴾ خالصًا لله في عبوديته، مطيعًا له في شريعته ﴿شَكُورًا﴾ له على نعمه.

وهي: دعوة لبني إسرائيل، كما أنها في ذات الوقت دعوة لكل الأمم.. أن تؤمن، وتطيع، وتشكر.

ولمّا بين ربنا تبارك وتعالى أنه أنعم على بني إسرائيل بإنزال التوراة على نبيهم موسى ﷺ.. ولمّا بين كذلك أنه: جعلها هدى لهم، عقب على هذا البيان، بأنهم ما اهتموا بهداه، بل وقفوا في الفساد.. فقال تعالى:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ۝﴾

يعني: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: أوحينا إليهم وأخبرناهم

بقولنا ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، وخلاف أحكام التوراة، وإيذاء عباد الله ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ من الإفساد ﴿وَلَنَعْلَنَ﴾ على الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ واستعلاء بليغًا، بغير الحق، وعن طريق الخداع والمكر.

ولكن.. ألهذا الفساد في الأرض، والاستعلاء بغير الحق في المراتين.. من نهاية؟ نعم. فلنقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير، وهو يقول:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾

والمعنى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ بالعقاب، وأفسدتم المرة الأولى، وظهر فسادكم وإفسادكم في الأرض، وفسدكم بين الناس ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وأرسلنا أناسًا يتصفون بصفتين:

الأولى: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ يؤمنون بنا، ويلتزمون بشرعنا، ويُصلحون في الأرض، ولا يفسدون.. أي يمتلكون قوة الإيمان.

الثانية: ﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب قوة في كل شيء، وتفوق في كل شيء.. أي: يمتلكون قوة السلاح، والردع والتخويف.

نتساءل ماذا يفعل هؤلاء الناس المتصفون بالإيمان والقوة، والذين يرسلهم الله عليهم؟

والجواب من الله تعالى.. حيث يقول: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: عذبوهم، ونكلوا بهم، وقتلوا فيهم، وجاسوا يطاردونهم خلال الديار في شوارعها وفي بيوتها ليقتلون البقية منهم.

﴿وَكَانَ﴾ هذا ﴿وَعْدًا﴾ صادقًا ﴿مَّفْعُولًا﴾ واقعا بهم من الله تعالى.

وماذا بعد هذه المرة التي يُسامون فيها من عباد الله الأشداء هذا العذاب؟

يقول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ﴿٦﴾

أي: ﴿ثم﴾ بعد مدة طويلة من الزمان ﴿رَدَدْنَا﴾ وأعدنا ﴿لَكُمُ الْكُرَّةَ﴾ وهي الغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والقهر لهم، ورفعنا الذل عنكم.

وذلك: بعد أن ينحرف عبادنا ويهملون شرعنا، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.. ويضيع منهم التفوق، وتبتعد عنهم القوة، بل يصابون بالوهن وهو حب الدنيا وكرهية الموت. ﴿وَ﴾ في هذه الحال كذلك، نكون قد ﴿أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ بعد أن كانوا سابقًا - أفنوا أموالكم، وقتلوا أبناءكم. ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أكثر عددًا مما كنتم، وأعلى صوتًا. وعلى كل حال..

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا﴾ ﴿٧﴾

يعني ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ بالطاعة لله، والشكر على نعمه، وعدم الإفساد في الأرض، والاستعلاء والإيذاء للخلق ﴿أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن جزاء هذا الفعل: هو الخير يعود عليكم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ وأفسدتم في الأرض وآذيتم أهلها ﴿فَلَهَا﴾ أي: فلأنفسكم هذا الإيذاء؛ حيث يعود وباله وضرره عليها.

ولذلك: إن كنتم عقلاء فأحسنوا..!! وإلا.. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ بالعقاب، وأفسدتم المرة الثانية، وظهر فسادكم وإفسادكم في الأرض، وفسقكم بين الناس، بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد.. وذلك ﴿لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ﴾ بالإيذاء لكم، والتنكيل بكم، والقتل فيكم.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وهو بيت المقدس، وينتزعوه من أيديكم ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وانتزعوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿وَ﴾ ثالثًا ﴿لِيُتَبَرَّأُوا﴾ ويهلكوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوُا﴾ واستولوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ تدميرًا بليغًا.

وكان هذا كذلك: وعدًا صادقًا مفعولًا، واقعًا بهم - لا محالة - من الله تعالى.

يلاحظ: أن الناس كثيرًا ما يتساءلون عن هاتين المفسدتين وهل وقعتا، أو وقعت منهما واحدة وبقيت الثانية.. إلخ، هذه الأسئلة التي أضرب القرآن عن الحديث المحدد فيها؛ حيث لا يتعلق كثير فائدة بمعرفة هذه الأمور، وتحديد أعيان المراد بهم فيها، بل المقصود: هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط الله عليهم أقوامًا قتلوهم وأفنوهم.

ولذلك.. يقول لهم ربنا سبحانه وتعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾^(٨)
والمعنى: لعل ربكم ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل.

ثم قال لهم مهددًا: ﴿وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا﴾، يعني: بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم، وعظة لتتفعلوا به، وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي.

ثم رحمكم فأزال عنكم هذا العذاب، فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية والإفساد في الأرض، والفسق بين الناس؛ عدنا وبعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال دياركم يقتلونكم ويسوءون وجوهكم، ويدخلون المسجد وينتزعونه منكم، وهذه بشارة للمسلمين إذا اتصفوا بالعبودية الحققة، وامتلكوا القوة.

ويلاحظ: أن هذا لهم في الدنيا؛ حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

كما يلاحظ: أنهم عادوا إلى الإفساد؛ حيث كذبوا محمدًا ﷺ، فعاد الله عليهم بالتعذيب، وبعث من يسومهم سوء العذاب في بني قينقاع، بني النضير، وبني قريظة، وخيبر.

ويلاحظ ثالثًا: أن هذا التهديد ماض في الباقيين منهم اليوم، وإلى يوم القيامة.

بقي أن يوجد في مواجعتهم، ووقف إفسادهم، ورد بغيهم: عباد الله، الموصوفون بالإيمان، والقوة؛ الذين يحاربون هؤلاء الكافرين، الذين تنتظرهم جهنم، وهي لهم كما قال الله ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ تحيط بهم من جميع الجهات، ولا يفلتون منها أبدًا.

هذا.. ولَمَّا بَيَّنَّ المولى ما يفعله في حق عباده المخلصين الطائعين.. كالإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسى ﷺ.. وبَيَّنَّ كذلك ما يفعله في حق العصاة والمتمردين.. وهو تسليط البلاء عليهم. بَيَّنَّ سبحانه أن طريق الطاعة والنجاة من البلاء: هو الاهتداء بهدي القرآن الكريم.. فقال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩)

يعني: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي أنزله الله على محمد ﷺ ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة التي هي أعدل وأفضل في الاعتقاد والشريعة والسلوك.. إلخ.

﴿و﴾ كما أنه ثانيًا ﴿يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ عقيدة وعبادة، وإصلاحًا للبلاد، وإسعادًا للعباد ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة. ثم يبشر القرآن المؤمنين كذلك بما في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٠)

وليس هذا بغريب، حيث إن الاعتقاد الأصوب، والعمل الأصالح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركة الضرر الأعظم الأكمل. وبعد أن بين ربنا بعض أوصاف القرآن الذي يهدي الإنسان، وضح سبحانه بعض أوصاف هذا الإنسان، الذي ينبغي عليه أن يهتدي بالقرآن. فقال تعالى:

﴿وَيَذِّعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١)

أي: ﴿وَيَذِّعُ الْإِنْسَانُ﴾ ربه متسرعًا ومطالبًا ﴿بِالشَّرِّ﴾ مستهينًا به ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: كما يدعو بالخير، لا يفرق بين ما يضره وما ينفعه.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بطبعه ﴿عَجُولًا﴾ متسرعًا، يتعجل قطف الثمرة، ونوال النتيجة، قبل الاستعداد الكامل، والتهيؤ التام، وفي هذا توجيه للإنسان وتربية على التأني، والدقة في امتلاك العدة، وتوجيه لمن يتعجلون النصر دون سلوك طريقه الصحيح، وامتلاك أدواته اللازمة المناسبة.

ولمّا كان القرآن، وهو كتاب الله: من نعم الدين على الإنسان؛ كان الليل والنهار، وهما من خلق الله: من نعم الدنيا - كذلك - على الإنسان. يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ أَلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ﴿أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ من الآيات الكثيرة، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا.

﴿فَحَوِّنَا آيَةَ أَلِيلَ﴾ أي: طمسنا نورها بالظلام؛ لتسكنوا فيه.
 ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: منيرة بضوء الشمس ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ في النهار، وتكسبوا أرزاقكم، وتؤدّون مصالحكم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عليكم.
 ﴿و﴾ كذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ عن طريق الليل والنهار ﴿عَدَدَ السِّنِينَ﴾ التي تمر بكم، وتنظمون فيها مواعيدكم وأوقاتكم ﴿وَالْحِسَابَ﴾ لمعاملاتكم، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ على هذا النحو، ولصالحكم ﴿فَصَّلَنَاهُ﴾ وبيناه ﴿تَفْصِيلًا﴾ لا يحتاج بعده إلى بيان.
 يقول الله تبارك وتعالى: أعطيتكم هذه النعم في الدين والدنيا: فهل أطعتموني؟ على كل حال.. فإني مسائلكم يوم القيامة:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ﴾ وقيدنا ﴿طَلِرُهُ﴾ أي: عمله ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ لا ينفك عنه، خيرًا كان أو شرًا.. وذلك في يوم القيامة.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أمام أهل الحشر جميعًا ﴿كِتَابًا﴾ مسجلًا ومكتوبًا فيه عمله ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ يمكن له ولغيره أن يقرأ ما فيه.

ثم يقال له:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿١٤﴾

أي: ﴿أَقْرَأْ﴾ أيها الإنسان ﴿كِتَابَكَ﴾ الذي سجلت فيه عليك أعمالك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ ولنفسك ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وشاهدًا، حيث تنطق أعضاؤك وتشهد عليك فلا تستطيع الإنكار.. حقًا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ما دامت النعمة في الدين والدنيا قد يسرت، وما دام ثواب المطيع وجزاء العاصي قد اتضح؛ فإنه:.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾

يعني: لتكن هذه الأمور معلومة:

أولاً: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ بالقرآن للتي هي أقوم في كل شيء ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ﴾ ونتيجة اهتدائه له.

ثانياً: ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن هدى الله، وبعد عن طريق الصواب ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ ويجلب الضرر ﴿عَلَيْهَا﴾ يعني نفسه.

ثالثاً: ﴿و﴾ كل إنسان مسؤول عن نفسه، كل امرئ بما كسب رهين، حيث ﴿لَا نَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ذنب نفس أخرى.. أي: لا يحمل أحد ذنب أحد آخر.

رابعاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أحداً ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يبين له طريق الصواب، ويدعوه إلى الرشاد.

خامساً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿١٦﴾

يعني: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ﴾ أهل قَرْيَةٍ، أي: بلد ﴿أَمَرْنَا﴾ على ألسنة رسلنا ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ رؤساءها وأغنياءها والمنعمين فيها.. بالطاعة، واتباع الرسل، ﴿فَفَسَقُوا﴾، وبذل أن يطيعوا: طغوا وبغوا، وفسقوا فيها، ونشروا الفسق بين أهلها.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أي: القرية على أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾.

وهذا قد حدث كثيرًا.. يقول القوي العزيز:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)
يعني: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ كثيرًا ﴿مِنَ﴾ الأمم أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ والأزمان التي جاءت
﴿مِنَ بَعْدِ نُوحٍ﴾ عليه السلام؛ بسبب كفرها وطغيانها، وفسقها.

وذنوب العباد لا تخفى على الله أبدًا ﴿وَكَفَىٰ رِبِّكَ﴾ وحده ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾
خبرًا يعلمها، وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها السطور.

ولمّا كان طلب الدنيا هو - في الغالب - سبب الانحراف، وكان طلب الآخرة هو -
دائمًا - سبب الهداية؛ وضح الله سنة من سننه في هؤلاء وهؤلاء.. حيث يقول سبحانه عن
طلاب الدنيا فقط:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٨)

أي: ﴿مَنْ كَانَ﴾ من الناس ﴿يُرِيدُ﴾ بعمله، نوال ما في ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ وهي
الدنيا: ﴿عَجَلْنَا﴾ أعطينا ﴿لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ لا ما يشاء هو، وليس عطاؤنا هذا لكل
أحد، بل ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نعطيه فقط.. فالأمر بيدنا لا بيد غيرنا، والعطاء من عندنا لا
من عند غيرنا.

﴿ثُمَّ﴾ لأنه لم يرد إلّا الحياة الدنيا فقط، وأغفل طاعة الله، وأنكر وجود الله، وطغى
بنعم الله ﴿جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ دارًا وقرارًا ﴿يَصْلَاهَا﴾ يدخلها فتغمره بلهيبها من كل
جوانبه حالة كونه ﴿مَذْمُومًا﴾ ملومًا محتقرًا ﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودًا من رحمة الله.

ثم يقول سبحانه عن طلاب الآخرة:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا﴾ (١٩)

أي: ﴿وَمَنْ﴾ كان من الناس، قد ﴿أَرَادَ﴾ بعمله نوال ما في ﴿الْآخِرَةِ﴾ من نعيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ اللائق بها، والمناسب لنوالها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق وعد الله متبع رسوله ﷺ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات: إرادة الآخرة، والسعي لها، والإيمان، ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولا عند الله تعالى، مجازى عليه منه سبحانه. ثم يقول صاحب النعم سبحانه:

﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠)
يعني: ﴿كَلَّا﴾ من الفريقين طلاب الدنيا، وطلاب الآخرة ﴿نُمَدِّدُ﴾ أي: نعطي ﴿هَوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ﴾ رزقا ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ تفضلا وتكرما ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ عن أحد من خلقه، ولو كان عاصيا. ثم يقول سبحانه:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١)
أي: ومع هذا العطاء ﴿أَنْظُرْ﴾ أيها الإنسان، بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: بعض الناس ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا.. من حيث: المال، والجاه، والحسن، والعمر.. إلخ.. حقا: ﴿لَمَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا﴾ [الزخرف: ٣٢].

مع ذلك فلا وزن لهذا التفاضل في الدنيا. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿تَفْضِيلًا﴾ من الدنيا.. فالآخرة باقية، والدنيا فانية، فاعتن بالآخرة.

ولمَّا بين الله تعالى أن نوال سعادة الآخرة مشروط بإرادتها، والسعي لها، والإيمان كذلك، وكان هذا على وجه الإجمال. ثم شرع في التفصيل فقال:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعَدْ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٢٢)
يعني: لا تشرك ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ أحدا ﴿فَتَقَعَدْ﴾ في الدنيا لا ناصر لك ﴿مَذْمُومًا﴾ على هذا الشرك ﴿مَّخْذُولًا﴾ من الرب سبحانه. وهذا هو الأمر الأول لنوال سعادة الآخرة.

ولمَّا ذكر الأمر الأول لنوال السعادة في الآخرة، أتبعه بما يوصل إلى هذه السعادة كذلك.. فقال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾

يعني: ﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: حكم وأمر ﴿رَبُّكَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أحدًا ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ عز وجل؛ لتنالوا السعادة في الآخرة، ﴿و﴾ أمر كذلك أن تحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ عظيمًا، في كل وقت، وعلى كل حال، لتنالوا السعادة في الآخرة.

وعلى وجه الخصوص ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: يكونا في كفالتك ورعايتك، لكبر سنهما أو عجزهما.

وفي هذه الحال عليك هذه الأشياء:

١ - ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ أَوْ لَأَحَدُهُمَا﴾ وهي عبارة تدل على أدنى درجات الضجر منهما، أو من أحدهما.. بل أكرمهما واخدمهما، كما أكرماك وخدماك في ضعفك وصغرك.

٢ - ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ أو أحدهما، بالقول أو بالفعل.

٣ - ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ طيبًا حسنًا مهذبًا.

كذلك.. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ٢٤﴾ أي:

٤ - ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ يعني: تواضع لهما، واعطف عليهما، وبالغ في ذلك رحمة بهما.

٥ - ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ أي: قل ذاعيًا لهما في كبرهما، أو بعد موتهما ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ برحمتك الواسعة ﴿كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ وشملتني رحمتها.

يا أيها الناس:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (٢٥)

أي: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من رغبة في البر بالوالدين، والإحسان إليهما، فضلاً عن النشاط في هذا البر والإحسان.

وعلى كل حال ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ معهما، بارين بهما، قاصدين الإحسان إليهما؛ طاعة لله، وإكراماً لهما.. فإن الله ﴿كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ لذنوبهم، وخطاياهم.

يعني: يا مَنْ أسأتم لهما، أو لم تحسنوا في حقهما، توبوا إلى الله وأنبيوا إليه، يقبل توبتكم، ويغفر ذنوبكم، وتنالوا السعادة في الآخرة.

وبعد أن ذكر ربنا بر الوالدين، وضرورة الإحسان إليهما، أتبع ذلك بما يوصل - أيضاً - إلى السعادة في الآخرة. حيث قال عز وجل:

﴿وَعَاتِ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦)

يعني: ﴿وَعَاتِ﴾ وأعط ﴿ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ﴾ أي: الأقارب حقوقهم في مالك، بالإنفاق والتصدق عليهم، وفي معاملتك: بصلتهم، والسؤال عنهم، والاهتمام بأمورهم، والعطف عليهم.

﴿و﴾ آت أيضاً ﴿الْمَسْكِينِ﴾ حقه في مالك.. بالإنفاق عليه، والإحسان إليه.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ كذلك آت من مالك ما يبلغه مقصده.

ولمّا أمر ربنا بالإنفاق، للمال: اشترط عدم التبذير والإسراف فيه، فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ في المال ﴿تَبْذِيرًا﴾ يخرج عن حده.

ولكن، لماذا يقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧)؟

يعني: لا تكونوا مبذرين في إنفاق المال، في غير طاعة الله، أو فيما هو زائد عن

حاجتكم، حيث ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أمثالهم في معصية الله. ولأن هذا الإسراف إساءة لنعم الله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِنَعْمِ رَبِّهِ﴾ ﴿كَفُورًا﴾ فلا تكونوا مثله، بل اجعلوا المال طريقًا ووسيلة لنوال السعادة في الآخرة. وبعد أن أمر ربنا بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وبعد أن نهى عن الإسراف والتبذير.. أرشده إلى حسن التصرف عند عدم القدرة على إعطاء هؤلاء، فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آتِيَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾

أي: إما أن تعطيهم ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ وتتركهم، لعدم قدرتك على إعطائهم، وأنت في ذات الوقت تبتغي رَحْمَةً ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بك، وفضلًا عليك، ونعمة ﴿تَرْجُوهَا﴾ منه؛ لتعطيهم منها، ﴿فَقُلْ لَهُمْ﴾ في هذه الحال ﴿قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي: قولًا لينًا، فيه ما يشعرون أنه إذا يسر الله الحال، فستعطيهم من فضل الله. ولما أمر ربنا تبارك وتعالى بالإنفاق الأمثل على الأقارب والمساكين، وأبناء السبيل، أرشد سبحانه إلى الإنفاق الأمثل عمومًا، فقال عز وجل:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

يعني: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ مربوطة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهذا كناية عن البخل في الإنفاق، كذلك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ في الإنفاق ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: لدرجة الإسراف، وألا ﴿تَقْعُدَ﴾ بسبب هذا البخل ﴿مَلُومًا﴾ وبسبب هذا الإسراف ﴿مَّحْسُورًا﴾.

بل عليك بالاعتصام في الإنفاق، بلا بخل ولا إسراف؛ حتى تنال السعادة في الدنيا والآخرة.

ولما نهى ربنا عن البخل وعن الإسراف، بين أن الرزق منه، وأنه يوسع فيه على من يشاء، ويضيق فيه - كذلك - على من يشاء؛ لعلمه بمصالح عباده في هذا وذاك. فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)
 أي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هو الذي ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من خلقه
 ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ﴾ أن يضيق الرزق على مَن يشاء من عباده.
 وما دام الأمر كذلك، فلا تبخلوا ولا تسرفوا، لتنالوا السعادة في الآخرة.
 حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ ومصالحهم ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.
 ولما بين المولى عز وجل، أن الرزق منه، وأنه وحده المتكفل بأرزاق العباد؛ نهى عن
 قتل الأولاد مخافة الفقر. فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١)

يعني: اطمئنوا على أرزاقكم أيها الأغنياء ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بالوَاد للبنات،
 ودفنهن أحياء، كما كان العرب يفعلون، أو بالإجهاض، أو بالمنع من الإنجاب ﴿خَشْيَةَ
 إِمْلَاقٍ﴾ أي: خوف الفقر؛ حيث إنه سوء ظن بالله الرازق، وذلك ضد الواجب من تعظيم
 الله، أو خشية عار، حيث إنه تخريب للعالم، وذلك ضد الشفقة على خلق الله.

لا تفعلوا ذلك، فإننا ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لا أنتم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا نرزقكم معهم، فأنتم
 لا ترزقون أنفسكم، فضلًا عن رزقهم.

لا تفعلوا ذلك: حيث ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ عند الله، وعادة سيئة من
 أهلها. لا تفعلوا ذلك، فهو حائل لكم، ومنع من نوال السعادة في الآخرة.

ولما نهى القوي العزيز عن قتل الأولاد على هذا النحو، أتبع ذلك بالنهي عن قتل
 الكرامات، بهتك الأعراس. فقال جل وعلا:

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)
 أي: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾ ولا تفعلوا ما يوصل إلى ﴿الرِّزْقِ﴾ من مقدماته؛ كالنظرة،
 واللمس، والقبلة. والنهي عن الاقتراب منه، أبلغ في التخويف من النهي عنه مباشرة، كما
 أن فيه إبعاد عن ساحته، ومَن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وكان النهي على هذا النحو.. حيث ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزنى ﴿كَانَ﴾ فعله ﴿فَلَحْشَةً﴾ قبيحة ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وطريقًا إلى الخسران في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ثم نهى عن قتل النفس البشرية.. فقال الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣)

والمعنى: ﴿و﴾ لتنالوا السعادة في الآخرة ﴿لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ﴾ البشرية ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهو إحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، ويدخل في هذه الآية: النهي كذلك عن قتل الإنسان لنفسه أي: الانتحار.

ولو حدث وقُتل أحدٌ لسبب غير هذه الأسباب: فقد قُتل مظلومًا. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا﴾ شرعًا ﴿لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ وحق على القاتل، إما القصاص، وإما الدية، وإما العفو التام. فإذا اختار ولي المقتول القصاص ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ بالتمثيل بالجثة، أو يقتل غير القاتل. حيث ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ من الله بأخذ حقه.

ولما نهى الحكيم الخبير عن قتل النفس البشرية إلا بالحق، أتبع ذلك بالنهي عن إيذاء اليتيم في ماله.. حيث إن ذلك نوع قتل له. فقال جل جلاله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤)

يعني: تصرفوا أيها الأولياء في مال اليتيم بما يصلحه وينميهِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ هذا المال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ في التصرفات المفيدة، وذلك ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ ويستطيع التصرف في ماله، فلا تقربوه بعد ذلك، إلا بالنصيحة وحسن المشورة، ولأن الامتثال لهذا النهي، طريق لنوال السعادة في الآخرة، وتصرف لصالح المجتمع، فقد أمر ربنا عقيقه بثلاثة أوامر لنفس الغرض:

الأول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ مع الله، أو مع الناس ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ﴾ الإنسان ﴿مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) الثاني: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وأتموه لغيركم ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لهم، أو بعتم. الثالث: ﴿وَزِنُوا﴾ للناس عطاءً، ولكم أخذًا ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ أي: الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل، الذي لا انحراف به، ولا غش بسببه. ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في دينكم ودنياكم، وفي معاشكم وأخراكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلاً وعاقبة وجزاء، وطريقاً لنوال السعادة في الآخرة.

ولمّا ذكر ربنا هذه الأوامر الثلاثة: عقب عليها بثلاثة أشياء نهى عنها سبحانه، فقال في النهي الأول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

أي: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ تتبع، وتتدخل بالظن في ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وتقول: رأيت ما لم تر، أو سمعت ما لم تسمع، أو علمت ما لم تعلم. حيث ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ﴾ واحد من ﴿أُولَئِكَ﴾ له وظيفة ناطها الله به، وطلب منا أن نستعمله فيها. ولذلك: ﴿كَانَ﴾ الإنسان ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الاستعمال السليم لهذه الحواس ﴿مَسْئُولًا﴾ أمام الله تعالى يوم القيامة.

وقال تعالى في النهي الثاني:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) أي: كن متواضعاً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تمايلاً، وتفاخراً وغروراً. حيث ﴿إِنَّكَ﴾ عبد ضعيف ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ بقدميك وطناً ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ﴾ بهامتك ﴿طُولًا﴾ وإعجاباً بنفسك. ثم يقول الله تعالى:

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨)

أي: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ الذي مرَّ في هذه الوصايا: فيه الأمر بالحسن، والنهي عن السيء، و﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ فلا تقربوه؛ لتنالوا السعادة في الآخرة.

كما يقول المولى عز وجل:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩)

أي: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي مرَّ من الوصايا.. هو ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ﴾ أي: من عين ﴿الْحِكْمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس به.

ثم يقول له في النهي الثالث:

ولا تشرك ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ أحدًا ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة لا ناصر لك ﴿مَلُومًا﴾ من نفسك، ومن الخلق، ومن الله ﴿مَدْحُورًا﴾ أي مطرودًا من رحمة الله.

وبعد هذه الجولة الطويلة مع هذه الأوامر، التي هي من عين الحكمة، والتي توصل من يمثل لها لنوال السعادة في الدنيا والآخرة، يعرض علينا العزيز الحكيم موقفًا من المواقف الضالة لأهل الشرك، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠)
يعني: هل خصكم ﴿رَبُّكُمْ﴾ بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ﴾ هو لنفسه بناتًا ﴿مِنَ الْمَلَكَةِ إِنثًا﴾؟ حقا. ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ﴾ على الله ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ شنيعًا فظيعًا، حيث أخطأتم ثلاث مرات، كل مرة أبشع من أختها؛ فقد جعلتم الملائكة آلهة، وجعلتموهم بنات، كما جعلتموهم بنات الله، وكله إفك وزور.

ويبين العليم الحكيم سبحانه، أنه أكثر في القرآن من ذكر الدلائل على وحدانيته وقدرته، وأكثر فيه من المواعظ والحكم؛ لأنه أراد الفهم من الناس له، والعمل به. حيث قال جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١)

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ بينا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ كل شيء، ويسرناه ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ أي: ليتعظوا بما فيه، ويستجيبوا لدعوته، والعمل بأحكامه.

﴿و﴾ لكن ﴿مَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا البيان ﴿إِلَّا نَقُورًا﴾ وبعدًا عن الحق، ومعاداة له.

يقول رب العزة، خاطب عقولهم يا محمد، ويا كلّ داعٍ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢)
أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ﴾ غيره يعبدونها ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ ويزعمون ويعتقدون..!!.. ﴿إِذَا﴾ في هذه الحالة ﴿لَا بُدَّوْا﴾ أي: لطلبوا الحصول ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ وهو الله تعالى ﴿سَبِيلًا﴾ طريقًا ووسيلة، ليقاتلوه بها حتى ينفردوا بالحكم دونه.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣)
أي: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ تنزه وترفع ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ في حقه، من نسبة الشريك، أو الولد إليه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يليق بذاته سبحانه فهو الذي...

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤)
نعم.. هو الله، الذي ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾ وتقدسه، وتنزهه عما لا يليق به.

﴿و﴾ كذلك كل ﴿مَنْ فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات.. تسبحه، وتقدسه.
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكون كله ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ سبحانه، بلسان المقال، أو بلسان الحال.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ﴾ أنتم أيها البشر ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ لأنه ليس بلغتكم، أو لقصور فهمكم وإدراككم عن ذلك.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ ولا يزال ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب عن هذه المزاعم الفاسدة وآمن.

وبعد أن تحدثت الآيات عن الإلهيات، يكون حديثها عن النبوات في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥)

يعني: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمد ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ أي: حجابًا لا يرى، ولذلك لا يهتدون به حتى ولو سمعوه؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أيضاً..

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦)

أي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمشيئتنا وقدرتنا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ حتى لا يفهموه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: ثقلاً حتى لا يسمعوه.

﴿و﴾ اعلم أنك ﴿إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ وأعلنت بذلك التوحيد ﴿وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم، ﴿نُفُورًا﴾ حتى لا يسمعوا منك، ولا يؤمنوا معك يا محمد...

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧)

أي: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: بالوجه والحال الذي يستمعون به، وهو السخرية منك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. ونحن أيضاً أعلم بما يتناجون به ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ مع بعضهم البعض، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ منهم ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ إذا أردتم اتباع محمد ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

يا محمد... ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤٨)
يعني: ﴿أَنْظُرْ﴾ إلى حالهم السيء ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ حيث قالوا عنك: شاعر، وقالوا: ساحر، وقالوا: كاهن.... إلى غير ذلك ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إليه ﴿سَبِيلًا﴾.

ولما تكلم ربنا عز وجل في الإلهيات، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات.. ذكر بعد ذلك شبهاتهم في إنكار البعث ويوم القيامة. فقال جل وعلا:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩)

يعني: ﴿وَقَالُوا﴾ أي المنكرون للبعث استهزاء ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ وصرنا ﴿عِظْمًا﴾ بالية ﴿وَرُفْنًا﴾ وترابًا ﴿أَءِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ مرة أخرى ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟..

إن هذا شيء بعيد الوقوع، مستحيل الحدوث..!! والجواب:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر غير ذلك ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويكون أشد من العظام والرفات، فستبعثون خلقًا جديدًا. هل يقتنعون.. هل يسلمون؟.. لا.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مرة ثانية استهزاء ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ وبعثنا مرة أخرى؟..

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو الذي سيعيدكم، وبعثكم مرة أخرى.

هل يقتنعون.. هل يسلمون...؟ لا. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أي: فسيهزون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ إنكارًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمرة الثالثة استهزاء ﴿مَتَى هُوَ﴾ أي: متى يكون يوم البعث هذا. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾ وقوعه ﴿قَرِيبًا﴾ ويكون ذلك:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

نعم.. البعث قريب، قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ رينا عز وجل للحياة مرة أخرى ﴿فَتَسْجُدُونَ﴾ من القبور، يوم تشقق الأرض عنهم سراعًا، قائمين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره سبحانه، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ ساعتها وقد بعثتم فعلاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الزمن.

وبعد هذه الردود القوية على منكري البعث، تتوجه الآيات الكريمة إلى مخاطبة النبي ﷺ ليووجه المؤمنين إلى السلوك الطيب في الدعوة، وفي التعامل، وغير ذلك حيث يقول الحكيم الخبير:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (٥٣)

يعني: اترك يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ المؤمنين موجهاً لهم ومرياً ﴿يَقُولُوا﴾ للكافرين ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي الكلمة الطيبة اللينة، حيث ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ﴾ يفسد ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلا يجعلهم يقبلون دعوتكم إياهم للإيمان. وليس هذا بغريب على الشيطان، حيث ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ واضح العداوة، لا يريد له الخير أبداً.

ويلاحظ أن هذا الأسلوب في التعامل مع الكفار، كان قبل الأمر بقتالهم. هذا.. وقد يسأل سائل: ما هذه الكلمة الطيبة التي أمروا بقولها للكافرين؟ فيكون الجواب هي:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٥٤)

أي: يقول المؤمنون للكافرين ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعرف من يستحق الهداية فيهديه، ومن لا يستحق ذلك منكم، ولا يقولوا لهم عبارات مهيجة مثل: أنتم ستدخلون النار، أو ستعذبون.. إلى غير ذلك. بل قولوا لهم: ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ ربكم أن ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ رحمكم، ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ عذبتكم.. فالأمر بيده، لا بأيدينا، والحكم له، لا لغيره.

﴿و﴾ أما أنت يا محمد، فـ ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ فتجبرهم على الإيمان.

ويلاحظ: أن هذا الأسلوب قد نسخ كله بقوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾
[التوبة: ٧٣].

هذا، وليس علمه سبحانه بمقصود عليكم فقط. بل علمه شامل لكل شيء. قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾

يعني: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلهم، وأعلم بما يليق بهم من المصالح والمفاسد. ولهذا السبب يقول المولى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بتخصيص كل واحد منهم بفضيلة من الفضائل، كموسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالإسراء والمعراج، وكذلك آتينا موسى التوراة، وداود الزبور، وعيسى الإنجيل، ومحمد القرآن، وفضلناه على جميع الخلق.

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ فلم يستبعدون أن يعطي الله محمداً القرآن..؟

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى للنبي ﷺ:

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾
أي: خاطب يا محمد الكفار و ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ كذباً أنهم آلهة ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غير الله، كالملائكة، الذين كان يعبدهم البعض، وعيسى، وعزير، والجن، ولا يدخل في هؤلاء الأصنام. ادعوهم، واطلبوا منهم.. أن يكشفوا عنكم الضر؛ من فقر، أو مرض، أو خوف، أو يحولوه إلى غيركم بدلاً منكم..!! ستجدون أنهم عاجزون ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿كَشَفَ﴾ هذا ﴿الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ له إلى غيركم.

وليسوا عاجزين فقط.. بل:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾

يعني: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أنهم آلهة ويعبدونهم من دون الله كالملائكة، وعيسى، والجن، وخلافهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون هم أنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: التقرب، ونوال مرضاته.. بالطاعة، ويتنافسون في ذلك ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه سبحانه بها، ﴿وَلَا﴾ وذلك لأنهم ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ بهم ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لهم إن عصوه، كما يعذب لذلك غيرهم.

فكيف إذا: تدعونهم آلهة، وهم على هذا الحال..؟ حقًا. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: واجبًا أن يحذره كل أحد، بالإيمان، ومزيد الطاعة.

يقول ربنا لحبيبه محمد ﷺ: ذكرهم بالقرى التي أهلكتنا أهلها لكفرهم، وقل لهم:

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿٥٨﴾

أي: وما ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى الكافر أهلها ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ بالاستئصال التام ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالبلاء، وقتل الرؤساء، وتسليط المسلمين عليهم.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوبًا، ومجزومًا بحدوثه لا محالة. وفي هذا ما فيه: من التهديد لهم على عنادهم وضلالهم وكفرهم.

وهنا، كأن قائلًا يقول، وسائلًا يسأل: لِمَ لَمْ يرسل الله لهم ما طلبوا من الآيات التي اقترحوا الإتيان بها ليؤمنوا؟ فكان الجواب:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَٰثَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ﴿٥٩﴾

يعني: وما جعلنا نترك إرسال الآيات التي اقترحوها عليك يا محمد ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ عندما أرسلناها إليهم، فكذبوا، فأهلكناهم، ولو أرسلنا إلى هؤلاء ما اقترحوا: لكذبوا، واستحقوا العذاب وأهلكناهم؛ وهذا يكون خلاف ما حكمنا به من إهلاكهم لحين تمام أمر الإسلام، ولذلك لم نرسل لهم ما اقترحوا من الآيات.

﴿و﴾ هذا مثال، وهو أننا ﴿ءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ آية، كما طلبوا ﴿مُبْصِرَةً﴾ واضحة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فأهلكناهم.
 ﴿و﴾ على كل حال: ﴿مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ للعباد ليؤمنوا.
 ثم يذكر الله رسوله ﷺ بأمر هام، حيث يقول:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٠﴾
 أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ وحياً ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماً وقدره، فهم في قبضته، وتحت إمرته؛ فبلغهم، ولا تخف أحداً، فهو سبحانه يعصمك منهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ إياها عياناً ليلة الإسراء ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً ﴿لِلنَّاسِ﴾ وإيمانهم بالغيب، فيثبت منهم من يثبت، ويرتد منهم من يرتد، وقد كان، حيث ارتد بعض من لم تحتل عقولهم وقلوبهم ذلك.

﴿و﴾ كذلك جعلنا ذكر ﴿الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ وهي شجرة الزقوم، وهي: ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصفات: ٦٤، ٦٥]. وهي: ﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ [الدخان: ٤٤]، أي: طعام الكافر الفاجر.

جعلنا ذكرها ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ اختباراً للناس، وإيمانهم بالغيب، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بها ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ حيث سخرُوا وقالوا: لا نعرف الزقوم إلا التمر والزبد.

اذكر ذلك لتعرف لِمَ لَمْ نجبهم في إرسال الآيات التي اقترحها..؟
 ثم يذكره بأمر آخر.. قائلًا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجدود تحية ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي كان معهم، وشمله الأمر بالسجود.. فإنه ﴿قَالَ﴾ متكبراً على أمرنا، معللاً رفضه للطاعة: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: لمن خلقته من طين، وأنا من النار، والنار أفضل من الطين.

ثم ﴿قَالَ﴾ كذلك ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ أَخْبَرْتَنِي أَنَّهُ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ﴾ فضلت ﴿عَلَيَّ﴾، وأنا خير منه، وأفضل منه..؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي﴾ وأمهلتن ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ دون موت ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لأستولين عليهم، وأغويهم، وأضلهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المخلصون.

أجابه ربنا عز وجل:

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٦٤﴾

أي: أجابه الحكيم الخبير إلى ما طلب، و ﴿قَالَ﴾ له خمسة أشياء:

الأول: ﴿أَذْهَبَ﴾ فلن تموت إلا عند النفخة الأولى. وهذا عن طلبك التأخير إلى يوم القيامة.. دون موت.. وأما عن إغوائك لبني آدم: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وتأثر بك، وسار خلفك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ أنت وهم ﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾ كاملاً.

الثاني: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أي: استخف بـ ﴿مَنْ أَسْطَعْتَ﴾ الاستخفاف به ﴿مِنْهُمْ﴾ وذلك ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بوسوستك لهم، ودعائهم إلى المعصية.

الثالث: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ﴾ تصرف فيهم، وسقهم إلى ما تريد ﴿بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بجنودك من الركاب والمشاة جميعهم، واستعمل معهم كل وسائلك في الإغراء والإفساد.

الرابع: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ المحرمة كالربا، والسرقة وخلافه، ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ من الزنا.

الخامس: ﴿وَعَدُّهُمْ﴾ بالمواعيد الكاذبة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بذلك ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً.

وهل يفعل إبليس ذلك في كل الناس؟ لا.. أبداً.. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥)
يعني: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين الصادقين العاملين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ يا إبليس ﴿سُلْطَانٌ﴾ من تسلط أو قوة، بل وسوسة فقط، ينتصرون عليك فيها.
﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ لهم ﴿وَكِيلًا﴾ يؤيدهم، ويحميهم من وسوستك لهم. ولذلك:
فالمعصوم من عصمه الله..

ثم يعود الحديث إلى ذكر الدلائل الدالة على: وحدانيته، وقدرته وحكمته، ورحمته..
حملاً لهم على الإيمان، وإقناعاً لهم به.

حيث يقول تعالى أولاً:

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦)

أي: ﴿رَبُّكُمُ﴾ الإله الواحد، القادر هو ﴿الَّذِي يُزْجِي﴾ يسوق ويدفع ﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ وهي السفن ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ جيئة وذهاباً، حاملة لكم ولأمتعتكم ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا بركوبها والسفر بها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى، في الرزق وغيره. ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في تسخيرها لكم.

ثم يقول ثانياً:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرَّ أَغْرَضْتُكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

أي: ﴿و﴾ هو ربكم الإله الواحد القادر الذي ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ وهو الشدة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ من خوف الغرق، ﴿ضَلَّ﴾ وغاب عنكم ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون من

الآلهة المزعومة ﴿إِلَّا إِلَٰهٌ﴾ في هذا الوقت، فلا يغيب عنكم، بل تدعونه وحده؛ لأنكم في شدة لا يكشفها إلا هو سبحانه.

فإذا دعوتموه نجاكم. ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ﴾ من الغرق، ووصلتم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ لم تشكروا الله على ذلك وتؤمنوا به، بل ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن ذلك.

حقًا: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ جاحدًا للنعم وللنعم إلا من عصم الله، وقليل ما هم. ثم يقول: ثالثًا، ورابعًا..

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨)

يعني: ﴿أ﴾ كفرتم ﴿فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ﴾ الله ﴿بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي: الأرض كما فعل بقارون ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿أَوْ﴾ كفرتم، ﴿فَأَمِنْتُمْ أَنْ﴾ ﴿يُرْسِلَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترميكم بالحجارة، كما فعل بقوم لوط عليه السلام، حيث أمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿ثُمَّ﴾ في أية حال منهما ﴿لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يدفع عنكم هذا العذاب.

ثم يقول خامسًا:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٩)

يعني: ﴿أَمْ﴾ كفرتم، و﴿أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ الله ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ لشدة حاجتكم لذلك ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ عذابًا لكم ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة، التي تقصف وتكسر كل شيء في طريقها ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾ في البحر ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ﴾ في هذه الحال ﴿عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ناصرًا لكم، وتابعًا يطالبنا بما فعلنا بكم.

ثم يذكر الله تعالى بعض نعمه على الإنسان؛ تذكيرًا له بواجب الإيمان. فيقول عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠)

في هذه الآية الكريمة أربعة أنواع من النعم على الإنسان:

النوع الأول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة.. إلخ.

النوع الثاني: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ﴾ بقدرتنا ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على جميع المركوبات ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على أنواع المراكب.

النوع الثالث: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ من فضلنا ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ في المطعم والملبس والمسكن.

النوع الرابع: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ إنعاماً منا ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

ثم لما ذكر ربنا وذكر بأنواع النعم على الإنسان في الدنيا، ذكر - كذلك - وذكر بأحوال درجاته يوم القيامة.. فقال عز شأنه:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١)

أي: اذكر يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ﴾ كل الناس ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ نبيهم، أو كتاب أعمالهم، فيقال: يا أمة النبي فلان، أو يا أمة كتاب الخير، أو كتاب الشر.

﴿فَمَنْ أُوِّيَ﴾ منهم ﴿كِتَابُهُ﴾ المسجل فيه عمله ﴿بِإِمِينِهِ﴾ وهم الصالحون في الدنيا، السعداء في الآخرة، ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ أي: شيئاً ولو قليلاً، والفتيل هو الخيط في شق نواة التمر.

وأما مَنْ أُوِّيَ كتابه بشماله، فأولئك يقول المولى عنهم:

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

يعني: والصنف الثاني ﴿وَمَنْ﴾ هو ﴿مَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾ أي: الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن آيات الله، ودلائل وحدانيته سبحانه وقدرته، ولم يؤمن ﴿فَهُوَ﴾ كذلك ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾

أَعْمَى ﴿٧٣﴾ عن طريق النجاة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عما كان في الدنيا.

وقد دلت هاتان الآيتان.. على أن مَنْ يشكر نعم الله في الدنيا، يجرى خيرا الجزاء في الآخرة، وَمَنْ لم يشكر نعم الله في الدنيا، فهو محروم من فضل الله في الآخرة.

هذا، ولَمَّا ذكر سبحانه بعض نعمه على خلقه، وأصناف الناس بالنسبة لهذه النعم، من حيث الشكر وعدمه؛ ولَمَّا شرح أحوال الشاكرين لله، السعداء في الآخرة. أتبع ذلك بما يُعد تحذيرًا للسعداء من الاغترار والانخداع بوساوس أهل الضلال الأشقياء..

فقال جل جلاله:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ ﴿٧٤﴾

أي: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ أي: قارب أهل الكفر بسبب علمهم برغبتك في إيمانهم ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الدين والقرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾، ﴿و﴾ لو أنك فعلت ما يريدون ﴿إِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ لهم وحيبًا، ولكننا ثبتناك على الحق.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٥﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ﴿٧٦﴾

يعني: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ﴾ على الحق الذي أوحينا إليك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي: لقاربت أن تميل إليهم، لتصل إلى إيمانهم. ولو أنك فعلت ما يريدون ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: عذاب الحياة مضاعفًا ﴿و﴾ كذلك أذقناك ﴿ضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: عذاب الآخرة مضاعفًا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ في هذه الحال ﴿عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ لك يدفع عنك.

وفي هذا، تثبيت لكل الدعاة إلى الله، وتنبية لهم أن يكون خطهم واضحًا، ومنهجهم ثابتًا، لا يتزحزون عنه، ولا يفرطون فيه ولا يغيرون.

وبعد أن ذكر الله محاولات أهل الكفر خداع النبي عليه الصلاة والسلام، وصرفه عن الذي أوحى إليه، ذكر سبحانه محاولاتهم في إخراجه وصرفه عن مكة.. فقال عز وجل:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

أي: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ أي: قارب أهل الكفر، بسبب خوفهم من الحق الذي تدعوهم إليه ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ ليزعجونك ﴿مِنْ﴾ الإقامة في هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وذلك ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

﴿و﴾ لو أنهم فعلوا ما يريدون، وأخرجوك ﴿إِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خَلْفَكَ﴾ بعدك فيها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حيث يهلكهم الله. حيث إن ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أن نهلك أقوامهم لو أخرجوهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تبديلاً وتغييراً. ونحن لم نفعل في قومك ذلك: لأنهم ما أخرجوك، بل نحن الذين أمرناك بالخروج والهجرة.

ولما ذكر الله محاولات أهل الكفر في الخداع، والاستفزاز؛ أمر سبحانه بالاستعانة على محاولاتهم هذه بالعبادة. فقال جل وعلا:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾

والمعنى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وهي الصلوات الخمس، وهي: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ زوال الشمس ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ظلمته.. يعني: من زوال الشمس، ساعة الظهيرة، إلى ظلمة الليل، ويدخل فيها: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

ثم يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: وصلاة الفجر، وعبر عنها بـ ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ لأن القراءة ركن فيها، وحث على قراءة القرآن في هذا الوقت أيضاً. حيث يقول ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده الملائكة، وتجتمع عنده.

ثم يقول العزيز المجيد له:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ﴿٧٩﴾

أي: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ أي: فصل صلاة لله تعالى تطوعاً، غير الفرائض

المذكورة، واقرأ ﴿يَه﴾ أي: بالقرآن.. وهذه الصلاة ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾ أي: زائدة، وثوابها لك. فصلها ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ يوم القيامة، ويجعل لك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يحمذك فيه أهل الموقف، ويغبطونك عليه.

وإذا كان ما تقدم، هو عبادة فعلية: فهناك أيضًا عبادة قولية.. يأمرك الله بالاستعانة بها على محاولات أهل الكفر في الخداع، والاستفزاز. حيث يقول سبحانه:

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾
يعني: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي﴾ في القيام بأداء مهمات دينك وشرائعك ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾.

﴿و﴾ قل ثانيًا: ﴿أَخْرِجْنِي﴾ من أداء مهمات دينك وشرائعك، بعد الفراغ منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لا يبقى فيه تبعه علي ولا ملامة.

﴿و﴾ قل ثالثًا: ﴿وَاجْعَلْ لِي﴾ يا رب ﴿مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حجة بينة، تؤيدني بها، وتثبتني على الحق، وتنصرني بها على جميع من خالفني في طاعتك ودعوتك.

﴿وَقُلْ﴾ رابعًا: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو دين الله وشرعه ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وهو كل ما سواه من الملل والنحل والشرائع.

حيث.. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ﴾ مهما كانت له صولة، أو دولة.. فإنه ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: لا يبقى، بل يزول على أسرع الوجوه.

وبعد أن أمر ربنا تبارك وتعالى بهذه العبادة، بيّن أنها ينبغي أن تؤخذ من القرآن؛ ليكون فيها: الشفاء والرحمة. فقال تعالى:

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾

أي: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ نزول القرآن، وسماعهم له ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ حيث تلزمهم الحجة، ولا يؤمنون، فيحق عليهم العذاب.

ويلاحظ: أنه ما دفعهم إلى عدم الإيمان، ووقوعهم في الخسران؛ إلا حب الدنيا، والاستغراق في ملذات النعم، وجحود المنعم. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِحَنِينِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾

يعني: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الكافر، بصنوف النعم.. لم يشكر بل ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر للمنعم، ﴿و﴾ ازداد كفرًا حيث ﴿نَسَا بِحَنِينِهِ﴾ غرورًا، وإعجابًا بنفسه. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر، أو مصيبة ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ من رحمة الله، فاقد الأمل في عود النعم مرة أخرى إليه.

وهذه: هي طبيعة الكافر !! فهل يزيده القرآن، وجحوده به، إلا خسرًا..؟ ولذلك:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۝٨٤﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لأهل الباطل ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: على ما يناسب طبيعته من الهدى والضلال، فكل إناء بما فيه ينضح ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ﴾ منا ﴿أَهْدَى سَبِيلًا﴾ وأقوم طريقًا، وسيحاسب كلًا منا بما يستحقه. وهذا تهديد لأهل الباطل، ووعد لهم..

روي أن اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة، فهو نبي. اسألوه عن: أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فسألوه فقال: غداً أجيبكم، ولم يقل إن شاء الله، فانقطع عنه الوحي أربعين يومًا، ثم نزل الوحي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣، ٢٤]﴾ ثم نزل الوحي بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وأبهم قصة الروح. حيث نزل قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

يعني: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به البدن ﴿قُل﴾ لهم ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: علمه لا يعلمه أحد، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أنتم وكل المخلوقات التي تعي ﴿مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ حيث لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه. ولما بين ربنا أنه ما أتى خلقه من العلم إلا قليلاً. يبين كذلك أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل، لقدّر عليه. إذ يقول سبحانه:

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧) أي: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن، حيث نمحوه بقدرتنا من الصدور والمصاحف ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ يمنعنا من ذلك. ولكننا لم نفعل، بل أبقيناه إلى يوم القيامة، وما أبقيناه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ عليك وعلى الدنيا كلها. وهذا فضل من الله، حقاً ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾. وإذا كان هذا مع محمد ﷺ، فهو مع غيره أكد وأكد.

لاحظوا: أن في ذلك دليلاً على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند الله، الذي يقدر أن يذهب به، ويقدر أن يبقيه إلى يوم القيامة. وما داموا يشكون أنه من عند محمد، فليأتوا بمثله، ولكن أنى لهم ذلك..؟

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)

يعني: ﴿قُل﴾ لمن يشكون أن القرآن من عند الله ﴿لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ كلهم، وتعاونوا ﴿عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا﴾ من عند أنفسهم ﴿بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ وما فيه؛ ليشبوا أنه من عندك، وأنك فعلت كما فعلوا..!! ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أبداً. حتى ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ مساعداً في تحقيق هذا الغرض.

وما داموا لا يستطيعون، فليؤمنوا وليتعضوا بما فيه..

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩)

أي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بينا ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ مثلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتعظوا.

﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بربهم، وما اتعظوا، وآمن القليل، وانتفعوا بما فيه، واتعظوا به.

وهذه الأكثرية عاندت وبقيت على كفرها، ومنهم أهل مكة الذين أصروا على الكفر:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠)

يعني: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى﴾ تأتينا بواحد من هذه الأمور الستة:

الأول: ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ أي: تفجر لنا في أرض مكة عيناً، نشرب من مائها.

الثاني: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١)

يعني: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ﴾ كما في يثرب ﴿وَعِنَبٍ﴾ كما عند أهل الطائف ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ أيضاً ﴿خِلَالَهَا﴾ وبين أشجارها وممراتها ﴿تَفْجِيرًا﴾ يكون به ماؤها غزيراً.

الثالث والرابع: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٢)

يعني: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعاً نراها بعيوننا.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ كلهم ﴿قَبِيلًا﴾ أي: أصنافاً، ونراهم بعيوننا، ويشهدون لك بنبوتك.

الخامس والسادس: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا

رَسُولًا﴾ (٩٣)

يعني: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ﴾ مبني ﴿مِنْ زُخْرُفٍ﴾ من ذهب. ﴿أَوْ تَرَفَّى﴾ تصعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بسلم ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ﴾ لو رقيت فيها، خوفاً من أن تكون قد سحرتنا ﴿حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ منها ﴿كِتَابًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَقْرُوهُ﴾ فنؤمن لك.

ولأن كل هذه المطالب تعنت في تعنت، وعناد في عناد. فقد قال تعالى له ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ تعجباً من موقفهم، وتنزيهاً لربك ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ ماذا تطلبون مني؟ ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ كسائر الرسل، والرسول لا يأتون إلا بما يوحي إليهم به ربهم، وأنا بشر مثلهم لا آتي إلا بما يوحي إليّ به ربي.

على كل حال هذه مشكلة المعاندين، وهي بشرية الرسل، يقول المولى عز وجل:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤)

يعني: ﴿مَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ من الإيمان لَمَّا ﴿جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا﴾ تعجباً واستهزاء ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾؟

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء، نعم لأنكم بشر، بعث الله إليكم بشراً، ﴿لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ فيها ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مقيمين عليها لا يرحلون منها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ يناسبهم، كما نزلنا عليكم بشراً رسولاً يناسبكم. ثم..

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي في دعواي، حيث ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ جميعاً ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطنهم ﴿بَصِيرًا﴾ بظواهرهم.

ولهذا.. فهو أعلم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الضلال.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْجِسُهُمْ اللَّهُ عَلَى الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًٌا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧)

أي: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ ويوفقه لما فيه الهدى، ويلتزم به ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾. ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ الله، ولا يوفقه لما فيه الهدى، أو يعرف ولا يلتزم به ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ﴾ أبداً ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه يهدونهم وينصرونهم.. وهذا في الدنيا. وفي الآخرة يقول ربنا: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهم يمشون ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ويكونون ﴿عُمًٌا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ لا يتكلمون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون. وفي النهاية: يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ إقامتهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ بنيرانها وعذابها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكنت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ عذاباً بليها.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨)

يعني: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَاءُهمُ﴾ الذي يستحقونه.. بسبب: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾.

ثانياً: أنهم كفروا بالبعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا﴾ بالية ﴿أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.

لقد كفروا، ثم كذبوا، فاستحقوا ما ينتظرهم من العذاب.

إن المولى سبحانه وتعالى بعد أن أجاب على شبهات منكري النبوة، يعود بالحديث مرة أخرى؛ ليرد على شبهات منكري البعث الذين ﴿قَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ فيقول تبارك وتعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩)

والمعنى: أيستبعدون على الله تعالى أن يقدر على بعث العباد؟ كيف يكون هذا..!!؟ ﴿أ﴾ عموا، وجهلوا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقدرته ﴿قَادِرٌ﴾ أيضاً ﴿عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: على أن يعيد خلقهم ثانياً، ويحاسبهم على هذا الإنكار؟ هذا.. وليعلموا جيداً أنه سبحانه ﴿جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً﴾ محدداً معلوماً، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعيدهم فيه، ويبعثهم للحساب والجزاء. وقد وضع الله هذه الدلائل جيداً ﴿فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ﴾ الانتفاع بها، وما كان موقفهم منها ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ بها، وجحوداً لها، ونفوراً منها.

ولمّا كان الكافرون قد قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] فنزع وتوسع في الرزق والإنفاق..!! بين الله لهم أنهم لو ملكوا خزائن الله؛ لبقوا على بخلهم. حيث يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ من الرزق والمطر، وطلب منكم أحد شيئاً ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ﴾ بما عندكم، وبخلتم، ولم تعطوه ﴿خَشْيَةَ﴾ الفقر من هذا ﴿الْإِنْفَاقِ﴾ المطلوب منكم. ﴿و﴾ لا غرابة في هذا حيث ﴿كَانَ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر بطبعه ﴿قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً.

هذا، وفي معرض الرد على أهل الكفر لمّا قالوا للنبي ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات التي ذكروها، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] معجزات أقوى مما طلبتم، فماذا فعل قومه..؟ فلنقرأ قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَٰ بِنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١١١﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ﴾ معجزات ﴿يَبَيِّنُ﴾ واضحات. ثم قلنا لموسى: ﴿فَسَلِّ بِنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: اطلب خلاص بني إسرائيل من فرعون ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ مصر. وسأل موسى بالفعل فرعون قائلاً: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

فماذا فعل فرعون؟ قال له: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مغلوبًا على عقلك.
فماذا قال موسى ﷺ؟

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١١٢)

أي: ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات التسع ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فأنا نبي، ولست مسحورًا. وقد أنزل رب السموات والأرض هذه الآيات ﴿بَصَآئِرٍ﴾ دلائل واضحة؛ يبصرها كل إنسان، وقد أبصرتها ورأيته أنت، ولكنك معاند. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ هالكًا، ومعذبًا على كفرك وعنادك هذا.

فهل سكت فرعون عند هذا الحد؟ كلا، يقول المولى سبحانه:

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ (١١٣)

يعني: ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون، وحاول جاهدًا ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ يستأصلهم بتعذيبهم، وقتلهم وإفنائهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر. ولكن، لأنه طاغية ظالم، كافر معاند؛ كان له العزيز الجبار بالمرصاد.

يقول عز وجل: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ﴾ في البحر عند لحوقه بموسى ومن معه، فأغرقه الله هو ﴿وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١١٤)

أي: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد هلاك فرعون ﴿لِيَبَيِّنَ إِسْرَائِيلَ أَسْكَنُوا الْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الشام، ثم الأرض كلها بعد تشتتهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الإفسادة الثانية - كما في أول السورة [٧] - ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ من أرض الشتات إلى فلسطين ﴿لَفَيْفًا﴾ أي: جماعات.

وذلك ليسوءوا عبادًا لنا أولي بأس شديد وجوهكم، ويحققوا فيكم وعد الله. وتحتمل الآية أيضًا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وهي القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفَيْفًا﴾ مختلطين فتميز محسنكم ومسيئكم، ونجازي كل فريق بما يستحق.

فهل فهمتم يا كفار مكة، ويا كفار العالم هذا الدرس؟ فتكون النتيجة.. إيمانكم بالله، وتصديقكم لمحمد ﷺ، واتباعكم للقرآن الكريم، وما فيه من تشريعات خاصة وأن الله تبارك وتعالى يقول عنه:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥)

يعني: وبالهدى إلى الحق أنزلنا القرآن، ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ الذي يحتويه، ويشتمل عليه، ويدعو إليه ﴿نَزَلَ﴾ من عندنا لم يتطرق إليه تبديل أو تحريف.

﴿و﴾ هؤلاء الذين يعاندونك، ويقترحون عليك المعجزات.. لا عليك من كفرهم، فإننا ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالنار:

قالوا: هب أن هذا القرآن الذي تدعي أنه نزل بالحق، أما كان من الواجب أن ينزل عليك كله، جملة واحدة..؟ أجاب الله تعالى بقوله:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (١٠٦)

أي: لم ننزل هذا القرآن جملة واحدة، بل ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ وفرقناه إلى أجزاء في نزوله عليك ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ وتبلغه إليهم ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: تودة وتمهل وأناة.

﴿و﴾ هكذا ﴿نَزَّلْنَاهُ﴾ عليك ﴿تَنْزِيلًا﴾ على حسب الحوادث والوقائع في ثلاث

وعشرين سنة.

هذا، وما دام القرآن قد نزل بالحق، وكان من حكمة الله أن فرق نزول آياته في ثلاث وعشرين سنة.. فإن الله يقول لحبيبه ﷺ: قل لهؤلاء الأقوال الثلاثة الآتية:

الأول: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ لكم مطلق الحرية، فالنفع لكم وحدكم، والضرر عليكم فقط.

يا أهل الكفر.. لا تعاندوا.. فإن العقلاء من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب: لم يعاندوا، بل آمنوا به.. بل أكثر من هذا.. اسمعوا.. !!

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ في كتبهم السابقة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن، كانوا ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ بكل خشوع وخضوع، ودون تكبر أو عناد، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ تعظيمًا له وتوقيرًا ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث محمد، ونزول القرآن عليه، كما جاء على لسان الأنبياء من قبله ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي: واقعًا. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ في سجودهم ﴿يَبْكُونَ﴾ خضوعًا لله، وخوفًا من عذابه، ورجاء في رحمته ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا، ورقة قلب، وحلاوة ذكر.

الثاني: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ فهما اسمان لإله واحد، وليس إلهين كما تفهمون وتعيون، وذلك لما قالوا: ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إليها آخر مع الله. على كل حال: ﴿أَيًّا مَا﴾ أي: اسم ﴿نَدْعُوهُ﴾ الله به، فهو حسن ﴿فَلَهُ﴾ سبحانه ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ كلها، وهذان الإسمان منها، ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ حتى يسمعك المشركون فيسبون، ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ حتى لا يسمعك من خلفك من المسلمين، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: كن وسطًا في هذا الأمر؛ وهو طبيعة المسلم في كل أمر، وخير الأمور أوسطها.

ثالثًا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾

يعني: نَزَّهَ الله وعظمه، بعد أن ثبتت له الأسماء الحسنی في الأذهان.

﴿وَقُلِ﴾ في هذا التعظيم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد، ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت فرق من اليهود والنصارى، وغيرهم. وقل كذلك في هذا التعظيم الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون. وقل - ثالثًا - في هذا التعظيم الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ﴾ ينصره ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لم يُذَلَّ فيحتاج إلى ناصر.

﴿و﴾ أخيرًا ﴿كَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه تعظيمًا، باتباع شرعه، والخضوع لأحكامه، وطاعة رسوله ﷺ.
